محاضرات مقياس الاستشراق

الأستاذة نعيمة رحماني

السنة 2 انثروبولوجيا

المحاضرة07

الاستشراق وعلاقته بالانثروبولوجيا (تابع)

تلك الدّراسات أو بالأحرى "**العلوم الإنسانيّة في آسيا وإفريقيا الشّرقية**"[1] أو "**الدّراسات الشّرقية**"، أو "**دراسات المناطق**"،[2] كما يطيب للاستشراقيّين تسميتها حاليّا، متأثّرة بالمركزيّة الغربيّة نسبيّا في القرن 20م، بسبب الحركات التحرّريّة المناهضة للظّلم والاستبداد الّتي ظهرت نتيجة النّسق الاستعماريّ، والّتي كان لها الفضل في جعل الكثير من المستشرقين يعيدون الفحص والتّدقيق في النّظريات الّتي تبنّوها سابقا. وإثر ذلك برزت أعمال بحثيّة اعتنت " بدراسة الحضارات الإنسانية في جزئيّتها وليس في مجملها، كوحدات متنوّعة لكلّ منها كيانها الخاص والمميّز عن الآخر، سواء في تكوينه التّاريخي أو نظمه الاجتماعيّة."[3]

ونتيجة لذلك أيضا تمّ توظيف مصطلحات تعبّر عن التقاء الثّقافات المختلفة واحتكاكها في إطار التّوفيقيّة، مثل مصطلح التثاقف أو التّزاوج الثّقافي الّذي ظلّ مستعملا لسنوات ثم غيّر مؤخرا من قبل المركز القومي للترجمة بمصطلح التكيّف الثّقافي، والّذي يُقصد به" تلك الظواهر الّتي تنتج عندما يحدث اتّصال ثقافيّ مباشر بين جماعات ثقافيّة مختلفة، وما يترتّب على ذلك من تغيّرات في العناصر الثقافيّة الأصليّة لهذه الجماعات."[4]

---

[1] عبد الجبّار ناجي، مرجع سابق، ص47.

[2] إدوارد سعيد، الإستشراق، المفاهيم الغربيّة للشرق، مرجع سابق، ص44.

[3] حسين فهيم، مرجع سابق، ص146.

[4] شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق، ص229.

ينشأ إذا ذلك التغيّر حين تدخل جماعات من الأفراد الّذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال مباشر؛ ومثال ذلك اتّصال الشّعوب الأوروبيّة بالشّعوب الواقعة تحت سيطرتها، حيث يفضي ذلك الاتّصال إلى احتكاك ثقافة بسيطة مع ثقافة مركّبة. ومن المفروض أن يتمّ الأخذ والعطاء بين الثقافتين، أو رفض للسّمات الثقافيّة الدّخيلة ومناهضتها،[5]لكنّ المفهوم أصبح ملازما للسّيطرة، وبدل الأخذ والعطاء بين الثقافتين تمّ فرض الاندماج الكلّيّ في الثّقافة المستعمرِة؛ وقد حدث ذلك في الجزائر عندما فرضت فرنسا فرنسة الجزائر، وجعلت شعارها "الجزائر فرنسيّة"، فأصبح التكيّف الثقافي مستحيلا بمفهومه الأصحّ وجائزا بمفهومه المستعار الّذي يسمح بسيطرة الثقافة الدخيلة وفرضها ما يسمى بظاهرة الاستيعاب الّتي يتم فيها امتصاص الجماعة الخاضعة داخل الجماعة المسيطرة.[6]

وفي القرن نفسه، طفت بعض الدّراسات الإستشراقيّة الموضوعيّة الّتي نادت بتقديم وصف للمجتمعات الشّرقية، وتحليلها للمفاهيم والتصوّرات الموجودة لدى الأفراد ذاتهم وكما تتمثّل في لغتهم، من دون إقحام مفاهيم الباحث الغربي واتجاهاته التحليليّة. ونتيجة لذلك برز عدد من المستشرقين الغربيّين الّذين رفضوا خدمة حكوماتهم الاستعماريّة وكانت لهم اعمالهم البحثية الخاصّة وآراؤهم المستقلة، ولكنّ أغلبهم ظلّ مرتبطا بأفكاره الإيديولوجية؛ حيث جاء على لسان الباحث المغربي أحمد في كتاب الباحث حسين فهيم: " إن هؤلاء المستشرقين لم يستطيعوا أن يتجاوزا بصفة كاملة الرّؤية الايديولوجيّة للبرجوازيّة الأوروبيّة، وظلّ فكرهم في كثير من عناصره يدور في فلك نزعة المركزيّة الأوروبيّة، هذا فضلا عن بعض العناصر الإيديولوجية النّي ظهرت عندهم، بفعل وجودهم في مرحلة تاريخيّة أخرى غير الّتي عرفها الاستشراق في بدايته."[7]

ورغم وجود الحركات التحرريّة في المستعمرات ورغم ظهور فئة المستشرقين الموضوعييّن إلاّ أنّ القوى الاستعماريّة حرصت على تكبيل المجتمعات الّتي حصلت على استقلالها بنسق

---

[5] حسين فهيم، مرجع سابق، ص 153-154.

[6] شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق، ص90.

[7] حسين فهيم، مرجع سابق، ص 181- 194.

عالمي جديد[8] يقوم على سيطرة المركز، ويكرّس تبعيّة المجتمعات حديثة الاستقلال بالمجال الاقتصادي الغربي، بحيث يبقى النّسق الاستعماري ساري المفعول في المجال الاقتصادي والسّياسي والثقافي للدول المستعمَرة. وعلى أثّر ذلك تحوّلت الدّول المستعمِرة إلى دول سبرنيطيقية[9]، تتحكّم في الشّعوب المستضعفة عن طريق عودة مُخرجات نظام هذه الدّول إلى المتحكّم ليغذَّى بها على شكلّ مُدخلات، تمكنّه من التنبؤ بالسّلوكات المستقبليّة لتلك الدّول. وإذا أسقطناها على الجانب الاقتصادي تتحول ثروات المجتمعات المستعمرَة إلى مدخلات للدّول المستعمِرة، وهكذا تكون تغذية مرتدّة أو رجعيّة ليست فقط على مستوى المعلومة بل حتّى على مستوى عودة الثّروات والخيرات إلى المستعمِر.

وبسبب التبعيّة تخلّفت الدّول الشّرقية المستعمرَة أثناء تقدّم الدّول الغربيّة المستعمِرة، الأمر الّذي أدّى إلى بقاء المركز والتابع، وما استبدال كلّمة المجتمعات الشّرقية المتوحّشة بالمجتمعات النّامية والمتخلّفة بعد الحرب العالمية الثانية إلا "تأدبا ونفاقا".[10]

ويأتينا الاعتراف على لسان المستشرقين أنفسهم حيث يقول المستشرق الألماني **استفان فيلد** Stephan Wild 1937م في كتاب "الاستشراق" للباحث محمّد محمود زقزوق؛ "توجد جماعة يسمّون أنفسهم مستشرقين سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لابدّ من أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكلّ صراحة."[11] وهذا ما يجعلنا نؤكّد أنّ معرفة المستشرقين بتاريخ المجتمعات الأخرى جعلت استغلالهم والسيطرة عليهم أمرا في غاية السّهولة، فالمعرفة منحتهم قوّة السّيطرة وهنا تظهر العلاقة القويّة بين النّسق المعرفي والنّسق السّلطوي السياسيّ.

---

[8] إبراهيم أبو محمّد، النّظام العالمي الجديد، بين بريق الوعود وحقائق الاختراق، ط1، مكتبة الكيلاني، 2008م، ص43.

[9] شارلوت سيمور سميث، مرجع سابق ص342.

[10] المرجع نفسه، ص12.

[11] محمّد محمود زقزوق، مرجع سابق، ص55.